

(لِلْعِلْمِ سَوْرَةٌ، وَلِانْفِتَاحِهِ بَعْدَ
اسْتِغْلَاقِهِ فَرْحَةٌ، لَا يَضْبِطُهَا بَشَرِيٌّ
وَإِنِ اشْتَدَّتْ حُنْكَتُهُ، وَقَوِيَتْ مُنَّتُهُ،
وَفَضَلَتْ قُوَّتُهُ)

الجاحظ (٢٥٥هـ)

عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«يَا أَبَا الـمُنْذِرِ - أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «يَا أَبَا الـمُنْذِرِ - أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»

قُلْتُ: «اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ».

فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا الـمُنْذِرِ».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٨١٠).

(١)

سعةُ الاطِّلاع والاستكثارُ من المعلومات مطلبٌ لبلوغ مدارج العلماء، لكنَّ ذلك وحدَه لا يكفي طالب العلم للرسوخ في العلم والارتياض به، بل لا بُدَّ أن يتخلَّلَ أعطافَ التحقيق بتأمُّله وتقليبِه المعارف على صفائح عقله دون فتورٍ ولا مَلَلٍ، فجوهر المجاهدة في طلب العلم ليس في أطر النفس على قراءة أكبر قدر من الكتب، بل في أطرها على التحنُّث في محراب المعاني الغائرة والإشكالات المرهقة، ولا قرارَ لعلمِ طالبٍ لم يجعلْ من التأمُّلِ والاستنباطِ سُلَّمًا لتحصيل العلوم والمعارف، فـ (الاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة)[١].

(١) رسائل الجاحظ (٣: ٢٩).

وقد يأنَسُ الطالب بسرعة اقتناص عقله ومصافحة بصره لجليِّ العلوم وظاهرِ المعاني، لكنْ لِيَعلَمْ أنَّ مِن وراء جليِّها خفايًا وبواطنَ يُضَنُّ بها على غير العقول المتأمِّلَة، وذلك أن المعانيَ - كما يقول الماوردي (٤٥٠هـ) - (ضربان: جليٌّ وخفيٌّ:

فأمَّا الجليُّ فهو يسبق إلى فهم متصوِّرِه من أوَّلِ وَهْلَةٍ، وليس هو من أقسام ما يُشكِلُ على ذي تصوُّرٍ.

وأمَّا الخفيُّ فيحتاج في إدراكه إلى زيادة تأمُّلٍ، وفضلِ معاناةٍ، لينجليَ عمَّا أُخفِي، وينكشفَ عمَّا أغمِض، وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياضُ به، وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب، ويقرب منه ما بعُد، فإنَّ للرياضة جَرَاءةً، وللدُّربة تأثيرًا)[1].

ثمَّ إنَّ التأمُّلَ من خواصِّ التكوين الذاتي التي فَضَل بها التكوينَ الجماعيَّ، وذلك أنَّ لطالب العلم في تلقِّيه طريقين متوازيين، وهما: التكوين الذاتي، والتكوين الجماعي .. ولا غنى له عن أحدهما، ولكلٍّ من هذين الطريقين خواص، لكنَّ التكوينَ الذاتيَّ الذي ينكفئُ فيه الطالبُ على نفسه ويكون به حِلسَ مكتبته أحظى بالتأمُّل، بخلاف التكوين الجماعي الذي يكون فيه أسيرَ مصدرٍ آخرَ يَفرِض عليه نمطًا زمانيًّا ومكانيًّا ومعرفيًّا لتلقِّي المعرفة وإدارتها.

وهذا التكوينُ الذاتيُّ التأمُّليُّ أكثرُ تصالحًا مع نَزَعات الذات، فإنَّ للذَّاتِ انجذاباتٍ طَبْعِيَّةً غيرَ مراعاةٍ في التكوين الجماعي، وذلك يؤخِّر من موقع التأمُّل في خارطة التكوين المعرفي، فإنَّ مقدِّماتِ التأمُّلِ تختلف

(١) أدب الدين والدنيا (١٠١).

باختلاف الطلبة من جهة الاستعداد الذهني والتهيُّؤ النفسي، ولا يحقِّقُ التَّوازنَ في رعاية هذه المعطيات مثلُ التكوين الذاتي، أمَّا التكوينُ الجماعيُّ والأمرُ المشتَرَكُ فيَعرِضُ فيه (من النقص والتفاوت لأجل القوى المختلفة والهمم المتباينة والأغراض المتضادة التي قد تعاوَرَتْه ما لا يَعرِضُ في غيره من الأمور التي ينفرد بها ذو القوَّة الواحدة، وتخلص فيها همةٌ واحدةٌ، ويختصُّها غرضٌ واحدٌ، فإنَّ مثلَ هذا يَنتَظِمُ ويَتَّسِقُ، ويظهرُ فيه فضلٌ بيِّنٌ على الأوَّل)[1].

(٢)

حكى الزجَّاجي (٣٤٠هـ) في «مجالس العلماء» خبرَ مجلسٍ من مجالس العلم والأدب تقلَّبت أوابده بين إمامَي النحوِ: أحمد بن يحيى المعروف بثعلبٍ (٢٩١هـ) ومحمد بن يزيد المبرِّدِ (٢٨٥هـ)، بإدارة محمد بن عبدالله بن طاهر (٢٥٣هـ) - وقد كان رجلًا لا يقبل من العلوم إلا حقائقَها - وكان كلَّما ألقى سؤالًا عليهما أجاباه، وكان المبرِّد ألحنَ بحجَّته، فقال ابن طاهر للمبرِّد في ختم المجلس: (نِعمَ العلمُ علمُكم، إلا أنَّك لا تجعل لأحدٍ فضيلةً). فأجابه بقوله: (لا أتقلَّد مقالةً متى لزمتني حجَّةٌ). ثم قال مقالةً تبيِّن كيف ينحتُ طالب المعرفة بتأمُّله صخورَ التحقيق .. قال: (لَرُبَّما روَّأتُ في الحرفِ سنةً لتَضِحَ لي حقيقتُه!)[2].

---

(١) الهوامل والشوامل - مسكويه (٦٥).
(٢) مجالس العلماء (٩٧).

قالها المبرِّدُ (٢٨٥هـ)، فاصطفاه ابنُ طاهرٍ (٢٥٣هـ) لنفسه، بينما ضمَّ ثعلبًا (٢٩١هـ) لولده!

بعد المبرِّدِ بقرونٍ يأتي القرافيُّ (٦٨٤هـ) بكتابه العجاب «الفروق»، ويبتدئه بذكر الفرق بين الشهادة والرواية، وأحسب أنه بهذا الابتداء أراد أن يقذف في روع القارئ أن هذا الكتابَ المتلقَّى كتابُ تأمُّلٍ، وليس كتابًا تُدرك مضامينه بطرف العقل وحاشية الفكر .. كيف ذلك؟

قال في مطلع كلامه عن هذا الفرق: (ابتدأتُ بهذا الفرق بين هاتين القاعدتين لأني أقمتُ أطلبه نحو ثمان سنين فلم أظفرْ به)[1].

ما يقرب من ٢٩٠٠ يومٍ والمسألةُ مسرَّحةٌ في حيز النَّظر والتأمُّل!

وهكذا العلمُ، فإنَّ (تجشُّم القلب بالفكر لا يتقاعد عن تجشُّم البدن بالعبادات)[2].

بينما نرى هذه النماذج المشرقة وتنشرحُ لذكرِها وذكرِ أمثالها صدورُ التحقيق، نرى في الضَّفَّةِ الأخرى كثيرًا من الطلبة لم يأخذوا من العلم إلَّا فتاتَه، ولم تحتفل عقولهم بالنُّفُوذِ إلى أعواصه وأغواره، بل قنعوا بظاهرِ من القول، وباديْ من الرأي، (وما الآفةُ العظمى إلَّا واحدةٌ، وهي أن يجيءَ من الإنسان، ويجريَ لفظُه، ويمشيَ له = أن يُكثِّرَ في غير تحصيلٍ، وأن يُحسِّنَ البناء على غير أساسٍ، وأن يقولَ الشيءَ لم يقتله علمًا)[3].

---

(١) الفروق (١: ٦٧).

(٢) المستصفى للغزالي (٢: ٢٤٣).

(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني (٣٢-٣٣).

التأمُّلُ مشروعُ فكرَةٍ، والاطلاعُ المجرَّدُ مشروعُ معلومَةٍ، وإنما يحصل التمايز بين الطلبة بقدر استحواذهم على الأفكار لا المعلومات، فلا شأنَ للمعلومات إلَّا بقدر ما يُمِدُّها به العقلُ من إدراكه وتأمُّله، وقليلٌ من العلم مع تأمُّلٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من كثيرٍ لا يديرُه الطالب على فهمِه وتأمُّلِه، ولذلك لما رأى الإمام مالكٌ (١٧٩هـ) تلميذَيه وابنَي أخته مشتغِلَينِ بعلم الحديث - وهو علمٌ يحرِّضُ طالبَه على جمع الروايات وتتبع طرقها بما قد يضرُّ بفقهها وتأمُّلها - قال لهما: (أراكما تحبَّان هذا الشأنَ، فإن أردتُّما أن ينفعكما الله به فأقلَّا منه وتفقَّها فيه)[١].

فآلَ الأمرُ إذًا إلى استثمارِ المعلومات لا استكثارِها، إلى تخيُّرِ هيئة المعلومات وتوخِّي موقعها وحسنِ التصرُّفِ فيها لا مجرَّدِ العلم بها.

وقلِّبْ طرفك في جنبات التراث المعرفي للعلماء بشتى طبقاتهم، ستجد السَّادةَ هم من كانت الأفكارُ هي المحرِّكَ الأكبرَ لعلمهم، وبها تقلَّدوا مناصب التحقيق، بخلاف من نصب نفسه لاجترار المعلومات المنثورة عند الشركاء دون استثمارها.

ومن أولئك السَّادة المتأمِّلِين الذين كان تأمُّلُهم فتيلَ تحقيقاتهم: ابنُ دقيق العيد (٧٠٢هـ)، فإنه لم يشتهر بكثرة النقل، ولكنَّ قدرتَه التأمُّلِيَّةَ أخضعت رقاب المدائح لعلمه، حتى عند من كان ينافرُه ولا يحبُّه.

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣: ١٥٥).

قال الأدفوي (٧٤٨هـ) في ترجمته: (... أمَّا نقدُه وتدقيقُه فلا يُوازَى فيه، جرى ذكرُ ذلك مرَّةً عند الشيخ صدر الدين ابن الوكيل، وكان لا يحبُّه، وكان يتكلَّم في شيء يتعلَّقُ به، ويذكر أنه ليس كثيرَ النقل[1]، فشرعتُ أذكر له شيئًا إلى آخر الكلام، ذكرتُ له بحثًا، فقال: «لا يا سيدي، أمَّا إذا نقد وحرَّر فلا يُوَفِّيه أحدٌ»)[2].

لمثل هذا كان ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) يقول: (ما خرجتُ من بابٍ من أبواب الفقه واحتجتُ أن أعود إليه)[3]. وما ذلك إلا لأنَّه كان لا يغادر البابَ حتى يُرهِقَه تأمُّلًا، والتأمُّل خزانة العلم، لأنه يوطِّئ للعلم مكانًا راسخًا في عقل المحصِّل، وقلَّما ينسى المرء مسألةً تأمَّلها، وبقدر تأمُّلِه لها يزداد رسوخُها وتشتدُّ أواصرُها.

لستُ بطبيعة الحال أفرِض تقابلًا بين التأمُّل والجمع، ولا بين الأفكار والمعلومات، ولست أضدِّدُ بين مسارات التحصيل بما يجني على بعضِها

(١) من شواهد عدم اتساعه في النقل ما نقله التاج السبكي (٧٧١هـ) عن والده بقوله: (سمعت الشيخ الإمام يقول: حكى لي شيخنا ابن الرفعة أنه دخل على ابن دقيق العيد يومًا - وكان كثير الكتب - فوجد بين يديه فتيا، وهو يقلِّبُ الكتب ظهرًا لبطن، وقد سِيمَ من الكشف وأعوزه النقل وأضجره التعب، فقال لي: الله جاء بك، ما تقول في كيتَ وكيتَ .. فذكر له مسألةً من «التنبيه» قال: فأمسكتُ طويلًا. قال لي: ما بك؟ فقلتُ: السائلُ عظيمٌ لا يسأل إلا عن مُشكِل، وهذه في بادئ الرأي واضحة، فأنا أردِّدُ فكري في موضع الإشكال منها. فقال: لا والله، إنما هي فتيا وردت علي، وأعوزني النقل فيها. فقلت: هي في «التنبيه» وقرأتُ لفظَه عليه) ترشيح التوشيح (٤٦أ - ٤٦ب «مخطوط»). ويقابل ذلك قول الأدفوي: (في تصانيفه من الفروع الغريبة والوجوه والأقاويل ما ليس في كثير من المبسوطات، ولا يعرفه كثير من النَّقَلة) الطالع السعيد (٥٨١).

(٢) الطالع السعيد (٥٨١).

(٣) الطالع السعيد (٥٨٠).

لحساب بعضٍ، فما ابتُلِي طلبة العلم في زماننا بمثل هذا التضديد الذي يُربِك التحصيل ويُقلِق الخطط، فكما أن التأمُّل غايةٌ، فكذلك جمعُ المعارف والمعلومات، بل إنَّ فاعليَّةَ التأمُّلِ مشروطةٌ بتحصيل المعلومات وجمعها، ولا يمكن للطالب أن يتحرَّكَ في أرضٍ فَضَاءٍ خاليَةٍ منها، ومن هنا كان نقصُ المعلومات مَزِلَّةَ تأمُّل، غير أنَّ الشأن هنا في الإشارة إلى أنَّ الارتياضَ بالعلم وحسنَ التصرُّف فيه لا يكون بمجرَّد تطويق المعلومات وامتلاك المصادر، بل لا يكون ذلك حتَّى تُوظَّفَ وتُستثمَرَ لبناء الأفكار والمفاهيم.

والمعلومات بمنزلة الألفاظ، والأفكار بمنزلة المعاني، و(المعنى هو المقصود، واللَّفظ وسيلةٌ إليه، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُه = تعلُّمُ الغاية وتعليمُها، وتعلُّمُ اللَّفظ وتعليمُه = تعلُّمُ المسائل وتعليمُها .. وبينهما كما بين الغايات والوسائل)[1].

فالتحقيقُ العلمي إذًا يتعاظم بقدر استكمالِ الطالب لقوَّتي الجمع والتأمُّل، وبقدر فواتِ إحدى هاتين القوَّتين يدخل النقص على علمِ الطالب، وفضلُ ما بين هاتين القوَّتين كفضل ما بين القلبِ وحَجَبَتِه، وتبيانُ ذلك ما قالهُ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة (٧٢٨هـ)، فبعد أن ذكرَ وظيفةَ كلٍّ من القلبِ - وهو آلة التأمُّل - والعينِ والأذنِ - وهما آلتا الجمع - وما لكلٍّ منها من العمل والقوَّة، وبيَّن أنَّ القلبَ إنما خُلِق لتُعلَمَ به الأشياء، وأنَّ مطيَّته التي يتوجَّه بها إلى الأشياء ابتغاءَ العلم بها هي الفكرُ والنَّظرُ، وأنَّ العينَ والأذنَ يحملان إلى القلب ما يعمل فيه بفكره ونظره = قرَّر ما به يُعلَمُ

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١: ٢٠٢).

فضلُ ما بين الجمعِ والتأمُّلِ، المعلوماتِ والأفكارِ، فقال: (فصاحبُ العلمِ في حقيقة الأمر هو القلبُ، وإنَّما سائرُ الأعضاء حَجَبَتُه تُوصِل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتى إنَّ من فقد شيئًا من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطةَ فيه، فالأصمُّ لا يعلم ما في الكلام من العلم، والضريرُ لا يدري ما تحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة .. وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب، أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب = فإنه لا يعقل شيئًا، فمدار الأمر على القلب)[1].

فليس المدارُ على جمع المعلومات، بل على تأمُّلِها وإعمال الفكر فيها، (ولن ينتفعَ بالنظر إلَّا من يُحسِنُ أن يتأمَّل)[2]، وإذا نال الطالب حظًّا وافرًا من الجمع والتأمُّل بلغ ذُرَى المجد العلمي.

وإذا أتى ذِكرُ الذُّرَى هبَّت رياحُ أبي العبَّاس ابنِ تيميَّةَ (٧٢٨هـ)، وإذا كان ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) لا يخرج من بابٌ حتى يقتله فهمًا وتأمُّلًا، فإنَّ ابنَ تيميَّةَ لا يخرجُ من بابٍ إلا وقد فتحَ بتأمُّلِه فيه علومًا وأبوابًا .. يقول عنه تلميذُه العالمُ الشابُّ ابنُ عبدالهادي (٧٤٤هـ): (لا تكاد نفسُه تشبَعُ من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تَـمَلُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقلَّ أن يدخلَ في علمٍ من العلوم، في بابٍ من أبوابه، إلَّا ويُفتَح له من ذلك البابِ أبوابٌ، ويستدرك أشياءَ في ذلك العلم على حُذَّاقِ أهله)[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٩: ٣١٠-٣١١).
(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الآمدي (١: ٤١١).
(٣) طبقات علماء الحديث (٤: ٢٨٢).

ولو كان التأمُّل كتابًا لكان ابنُ تيميَّةَ (٧٢٨هـ) عنوانَه وأبوابَه، فكلُّ ما ورَّثه من كتبٍ ورسائلَ شاهدُ صدقٍ على فضيلة التأمُّل وعظيم أثره في علم العالِم وتحقيقه، وأنت لن تجد دلالةً أقوى على شَرَف التأمُّل من أن تقدِّم ابن تيمية برهانًا على ذلك، فإنَّ المعارفَ عنده لا كالمعارف، وذلك لأن عقلَه التأمُّليَّ مع اتساع دائرة مطالعاته ومحفوظاته قد بلغ حدًّا من الإعجاز جعل من المعارف الناشئة عنه ذاتَ طابعٍ خاصٍّ وامتيازٍ عديمِ النَّظير، وهذا ما مكَّنه من تملُّك نواصي العلوم والغوص في أعماقها حتى بلغ من العلم مقامًا أهَّله لأن يستدرك على أهل كل فنٍّ ما حرَّروه وقرَّروه.

وهذا الامتياز وتلك الفتوح لا تكون بمجرَّد الجمع، ولا بمحض التأمُّل، بل باجتماعهما واتساعهما .. ولـمَّا اجتمع ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) بابن تيمية - وقد كان ذلك لما وفد ابن دقيق العيد القاهرةَ قبل وفاته بعامين سنة (٧٠٠هـ) - لم يلفت نظر ابن دقيق العيد في ابن تيمية شيءٌ كقدرته الفائقة على الحفظ والاستحضار، فلم يتكلم عن قدرته في الفهم والتأمل، لأنَّ من عادة المرء إذا سئل عن شخصية ما أن يتحدث عما فاته مما تحلَّى به المسؤول، ولما كان ابن دقيق العيد من أئمة النظر والفهم والتأمل شَخَصَ بتوصيفه إلى قدرة ابن تيمية النادرة على الحفظ والاستحواذ على المعلومات والمعارف، فقال: (رأيت رجلًا كلُّ العلوم بين عينيه، يأخذ ما يريد ويدع ما يريد)[1].

فبحفظٍ أذهل ابنَ دقيق العيد، وبتأمُّلٍ تشهدُ به مصنَّفاتُه بلغ ابنُ تيميَّةَ أنْ كان شيخَ الإسلام، نسيجَ وحدِه وفَرْدَ زمانه في العلم والمعرفة.

---

(١) المقفى الكبير للمقريزي (١: ٢٨٥).

نظيرُ ما تقدَّم في الموازنة بين مرتبتَي الأفكار والمعلومات ما يُقال في القدرة البلاغيَّة والبيانيَّة، فليس الشأن فيها متعلِّقًا بحفظ المفردات ودراية الأساليب، بل حتَّى تكون للبليغ قدرةٌ على حسن التصرُّف في الكلام وتوخِّي مواقع المفردات في نثره وشعره.

ولما ذكر الجرجاني (٤٧١هـ) أنَّ غَلَطَ الناس في شأن البلاغة كثيرٌ بيَّنَ ذلك وضربَ له مثلًا، فقال: (فمِنْ ذلك أنك تجد كثيرًا ممَّن يتكلَّمُ في شأن البلاغة، إذا ذكر أنَّ للعرب الفضلَ والمزيةَ في حُسْنِ النظمِ والتأليفِ، وأنَّ لها في ذلك شأوًا لا يبلُغُه الدُّخَلاءُ في كلامهم والمولَّدونَ = جعَلَ يُعلِّل ذلك بأنْ يقولَ: «لا غرْوَ، فإنَّ اللُّغَةَ لها بالطَّبعِ ولنا بالتكلُّف، ولن يبلغ الدخيل في اللُّغات والألسنة مبلَغَ مَنْ نشأ عليها، وبُدِئَ مِن أوَّلِ خَلْقهِ بها»، وأشباهِ هذا مما يُوهِمُ أنَّ المزيَّةَ أتتْها من جانبِ العِلْم باللُّغة) .. فالجرجانيُّ إذًا ينكر أن تكون مزيَّة العرب كامنةً في جانب علمها باللُّغة، فبأيِّ شيءٍ امتازت؟

يجيب عن ذلك، فيقول: (اعلمْ أنَّا لم نُوجِب المزيَّةَ من أجل العلم بأنفُسِ الفروقِ والوجوهِ فنستند إلى اللُّغة، **ولكنَّا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يصنع فيها**، فليس الفضلُ للعلم بأنَّ «الواو» للجمع، و«الفاء» للتعقيب بغير تَراخٍ، و«ثم» له بشرطِ التَّراخي، و«إنْ» لكذا، و«إذا» لكذا، ولكنْ لأنْ يتأتَّى لكَ إذا نظَمْتَ شعرًا وألَّفتَ رسالةً أنْ تُحسِنَ التخيُّرَ، وأن تَعرِفَ لكلٍّ مِنْ ذلك مَوضِعَه)[1].

(١) دلائل الإعجاز (٢٤٩-٢٥٠).

وقد أدار الجرجاني (٤٧١هـ) هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه الفَرْد «دلائل الإعجاز»، وذكر له من التطبيقاتِ والـمُثُلِ ما يُبهِج، وهذا في كلامه من المرقَّصَات، فإنه أحسنَ فيه ما شاء.

ومن الشواهد العزيزة والإشارات الأثيرة في هذا السياق ما جاء في ترجمة الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) مصنِّفِ «السُّنن الكبير»، و«معرفة السنن والآثار»، و«دلائل النبوة»، و«شعب الإيمان»، و«الأسماء والصِّفات»، وغيرها، فقد قال عنه الذهبي (٧٤٨هـ) مشيرًا إلى جوهر التميُّز في مشاريعه العلمية الإنتاجيَّة: (لم يقع له «جامع الترمذي»، ولا «سنن النَّسائي»، ولا «سنن ابن ماجه»، ودائرتُه في الحديث ليست كبيرة، بل بُورِكَ له في مرويَّاتِه، وحَسُنَ **تصرُّفُه فيها**، لحذقه وخبرته بالأبواب والرجال)[1].

فلم تكن دائرة البيهقي كبيرةً في الحديث، لكن لـمَّا كان له اقتدارٌ على حُسنِ التصرُّف في العلم بورك له فيه، وحُسنُ التَّصرُّفِ هذا لا يُؤتاه الطالب بكثرة ما يحصِّله، بل بخبرته بما حصَّله وحِذْقِه فيه، كما أشار الذهبي إلى ذلك حين تعليله حسنَ تصرُّفِ البيهقي بقوله: (لحذقه وخبرته بالأبواب والرجال).

أمَّا الخبرة فتُنالُ بطولِ ملابسة العلم، وإدامةِ النظر والتأمُّل فيه، وأمَّا الحذق فمنه ما يُنال بذلك، ومنه ما يُنال بالذكاء الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده، وقد كان ابن حجر (٨٥٢هـ) يبدي تمنُّعَه من تدريس غير علم الحديث لأعذار يبديها لمن يطلب منه ذلك، كقوله لبعضهم: (جهدي أتفرَّغُ لإلقاء

(١) تاريخ الإسلام (١٩: ٩٥).

العلم الذي يُقال إنني أعرفه). غير أن السخاوي (٩٠٢هـ) عقّب ذلك بقوله: (هذا مع كونه أستاذًا في كل فنٍّ بحُسْنِ ذكائه)[1]. فالذكاء يساعف صاحبَه بحسن التصرُّف في المادّة العلميّة التي يمتلكها، ولو كانت محدودةً.

ومن الأعلام الذين ارتاضوا بالعلم حتى رُزِقوا حسنَ التصرُّف فيه: أحمد فارس الشدياق (١٣٠٤هـ) أحد أعلام اللُّغة في العصر الحديث، فقد عَشِقَ اللُّغةَ، وكَلِفَ بها، فكانتْ أنسَه وصفوَه، وكتب في موضوعاتها كتبًا ومقالات، منها كتابه «سر اللَّيال في القلب والإبدال»، وقد كشف في تضاعيفه عن واقع مصادره اللُّغوية، فأتى بها أدهش، لكن لا من جهة وفرتها وتنوعها، بل بعكس ذلك تمامًا!

وذلك أن الحديث ساقه لـ «القاموس المحيط»، فبيَّن أن صاحبَه لم يكن له همٌّ سوى جمع الألفاظ دون مراعاةِ نسق المشتقات وضمِّ كل فرع إلى أصله، ولذلك كانت عبارته مشتَّتةً للنظائر، ثم قال: (فكان من همِّي في هذا التأليف أن أردَّ كلَّ فرعٍ إلى أصله، وأن أنسق معاني المادة نسقًا يبيِّنُ مأخذَها وعلاقتَها ومناسبتَها، وفي ذلك من العناء والجهد ما لا يخفى، وربَّما أحوجَ تنسيقُ المعاني وضمُّ المباني إلى تفسير فعلٍ مشهورِ الاستعمال بفعلٍ هو دونه في الشهرة).

وبعد أن ذكر أمثلةً لذلك قال: (ولو كانت عبارة «القاموس» واضحةً كعبارة «الصحاح» لاتَّسع المجال أكثرَ مما جُلْتُ فيه، وإنما لم أعدِلْ عنه إلى «الصحاح» لكونه أجمع للألفاظ، وليس عندي من كتب اللُّغة المطولة غيرهما)[2].

---

(١) الجواهر والدرر (٣: ١٠٢٤).
(٢) (١٤٥-١٤٦).

فالشدياق (١٣٠٤هـ) الذي انتهض للفيروز آبادي (٨١٧هـ)، وصنَّف «الجاسوس على القاموس»، لم يكن عنده من كتب اللُّغة المطولة إلا كتابان فقط، ولكنَّ حُسْنَ التصرُّفِ فيهما والتوسُّلِ بهما للنُّفُوذ إلى أغوارِ اللُّغة ودقائقِها مكَّنه من تملُّك ناصيتها.

وقد أشار الشدياق في مطلع «الجاسوس» لاختصاصه بالقاموس، ومضت الإشارة إلى ذلك في فصل (تحقيق العلم)، وتقدَّم نقل قوله: (إني معترفٌ بأن لصاحب القاموس عليَّ فضلًا كبيرًا، ومنه توجِب أن أكون لها ما عشتُ شكورًا، فإنه هو الذي ألجأني إلى الخوض في بحر اللُّغة الزاخر لاستخراج جوهرها الفاخر)[1].

فهذا من أسرار حسن تصرُّفه، إذ إنَّ اختصاصَه بالقاموس وكثرةَ ملابستِهِ وتأمُّلِهِ له كان له أثرٌ بالغٌ في قدرتِه اللُّغوية، ثم عطائِه وإنتاجِه اللُّغوي، حيث أدار كثيرًا من آرائه ونظراته على موادِّ القاموس ومخبَّآتِه.

فكما أن البيهقي (٤٥٨هـ) لم تكن دائرته في الحديث كبيرةً، ومع ذلك كان من أعلام المحدثين، فكذلك الشدياق، لم تكن دائرته في اللُّغة كبيرة، ومع ذلك كان من أعلام اللُّغَويين، والخبرةُ كفيلةٌ بأن تجعلَ من ضيِّقِ المصادر واسعَها بتأمُّله وحسنِ تصرُّفه.

---

(١) الجاسوس على القاموس (٦).

من مهارات التأمُّل الفاعلة في شتى المعارف مهارة استشكال المادة، وكثيرًا ما تَعرِضُ لطالب العلم في قراءاته بعضُ المعلومات والنتائج المشكلة، وهذا الإشكال إمَّا أن يدركه القارئ بتنافر موادِّ المعلومة الماثلة بين عينيه، أو ينصُّ عليه الناقل، وهذا النوع من المعارف من أجلِّ مثارات النظر، ومن أقبَلِ المحالِّ العلميَّةِ للارتياض بالتأمُّل.

طالب العلم حيالَ ذلك ربَّما سلَّم بما يعترضه من إشكالٍ وأذعن لبادي رأيِه أو لاستشكالِ غيرِه، فلم يظفرْ إلَّا بكون هذه القضية من المحارات، وهذا بحدِّ ذاته حصادٌ معرفيٌّ، لكنَّ الأمثَلَ أن يجعل القارئ من هذا الإشكال مُبتدَأً بحثٍ وتأمُّلٍ بتثوير مكوِّنات المادَّة المشكلة، فربما كان هذا الاستشكال مبنيًّا على خطأٍ في النقل أو نقصٍ فيه، ومثلُ هذه الموادِّ تبعثُ على القراءة والتنقيب، وتُحقِّقُ لطالب العلم فوائدَ كثيرةً.

وإذا نمَّى في حواسِّهِ وصناعاته المعرفية صناعةَ الاستشكال وتعقَّبَ بها المعلوماتِ وساءَلها = تحصَّل له بكثرة تفعيله لها وارتياضه بها مِن كَشفِ مخبَّآت المعارف ما لا يحصى، وهو ما يجعل كثيرًا من الطلاب يقف على فوائد في غير مظانِّها، فإذا ضمَّها إلى ما معه تهلَّلَ وجهُ تحصيله، وطَرِبَتْ عينُ معارفه.

وكما يكون الاستشكال للموادِّ المحصَّلةِ عند آخرين، فعلى الطالب كذلك أن يستشكلَ نتائجَه التي حصَّلها ويجدِّدَ استشكالها من حينٍ لآخر، ويُسائلَ دومًا مقرَّراتِه التي توصَّل إليها، وذلك ليُقوِّمَ معوجَّها ويُحكِمَ مُنآدَها، فلا يرد عليها اعتراضٌ إلا وقد أمكنه الانفصالُ عنه.

تأمُّلُ ساعةٍ خيرٌ من قراءة ليلة، والقراءةُ بلا تفكيرٍ لا توصل إلى شيء من العلم كما يقرِّر ابن باديس (١٣٥٩هـ)، وأن تقرأ كتابًا ثلاث مرات أنفع من قراءتك ثلاثة كتب كما يقول العقَّاد (١٣٨٣هـ).

وللعلم دقائق وأسرار (طريقُ العلمِ بها الرَّوِيَّةُ والفِكرُ)[١]، ومن ثَمَّ فإنه (ينبغي لطالب العلم أن يكون متأمِّلًا في جميع الأوقات في دقائق العلوم، ويعتادَ ذلك، فإنَّما يُدرِكُ الدَّقائقَ بالتأمُّل)[٢].

ولذلك كانت وصية الخليل (١٧٠هـ) أنْ (كُنْ على مدارسةِ ما في قلبِكَ أحرصَ منكَ على حفظِ ما في كُتبِكَ)[٣].

تأمَّلْ في علمٍ، في كتابٍ، في مسألةٍ.

تأمَّلْ لتخليق فكرة، لصناعة مدخل، لزرع إشكال.

تأمَّلْ، فإنَّ جوهر العلم لا يُنال بغير التحقيق فيه، والتحقيق في العلم لا يكون إلَّا باستعمال الفكر، وإمعان النظر، واستثمار العقل بتحديق بصيرته إلى صواب الغوامض بطول التأمُّل، (فأمَّا مَن سوَّلَت له نفسه دَرْكَ البغية بمجرَّد المشامَّة والمطالعة، معتَلًّا بالنظر الأول، والخاطر السابق، والفكرة الأولى، مع تقسيم الخواطر، واضطراب الفكر، والتساهل في البحث والتنقير، والانفكاك عن الجد والتشمير = فاحكُم عليه بأنه مغرور

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني (٧).

(٢) تعليم المتعلم للزرنوجي (٩١-٩٢).

(٣) الكامل للمبرد (١: ٥٠٣).

مغبون، وأخلِقْ به أن يكون من الذين لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيَّ وإن هم إلَّا يظنون)[1].

تأمَّلْ في كلمات العلماء، فإنَّ فيها من جليل المعاني ودقيق الأنظار ما هو حقيق بالتأمُّل واستكداد الفهم، والشأن كما قال أبو الدرداء (٣٢هـ) رضي الله عنه: (ما نحنُ لولا كلماتُ العلماء؟)[2].

وقد حرَّرَ تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ) القولَ في مسألةٍ، وبحثَها بما عدَّه من (نفائس المباحث)، ثم بيَّن أن الذي حرَّكه لهذا البحث والتحرير تأمُّلُه في كلامٍ للشافعي (٢٠٤هـ)، ثم قال: (ما أنفعَ تأمُّلَ كلام العلماء رضي الله عنهم)[3].

وإذا كان هذا مع كلام العلماء، فكيف هي الحال مع كلام رسول الله ﷺ المعطَى جوامعَ الكَلِم؟!

بل كيف هي الحال مع كلام الله تعالى الذي نزَّله ووصفه جلَّ في علاه بأنه (أحسن الحديث)؟!

واستمعْ إلى زَفْرَة ابن القيم (٧٥١هـ) حين تكلَّمَ عن قول الله تعالى في مطلع سورة غافر: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] بكلامٍ امتدَّ لبضعة صفحات، واستنبط من هذه الآية جُمَلًا من العلوم والمعارف، ثم قال:

---

(١) شفاء الغليل للغزالي (٦).
(٢) مسند الدارمي (١: ٣٥٩ - رقم: ٤٠٢).
(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠: ٢٧٥).

(هل خطر ببالك قطُّ أن هذه الآية تتضمَّن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إيَّاها؟!

وهكذا سائرُ آيات القرآن .. فما أشدَّها من حسرةٍ وما أعظمَها من غبنةٍ على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فَهِمَ حقائق القرآن، ولا باشرَ قلبُه أسرارَه ومعانيَه، فالله المستعان)[١].

*****

هذا، وإنَّ للعلمِ فَرْحةً، لا تُنَال بحصد أكبر قدر من الفوائد والـمُلَح، ولا بالترنُّم - حين تُسأَلُ - ببضعة أبيات من هذه المنظومة أو تلك، وإنما تُنَال حين يترنَّحُ عقلُك من رَهَق التأمُّل في دهليز مسألةِ مظلمةِ الآخِر، ويتهادى فكرُك ذليلًا خلفَ أذيال قضية مغلقة، حتى إذا ما أزِفَت ساعتُك انسدَلَ لك خيطُ الفتح، وانحلَّت عُقَدُ الإشكال .. هنالك الفَرْحة.

يسجِّل الجاحظ (٢٥٥هـ) ذلك، ويبين كيف تَنفَصِمُ عُرَى الحزم مع فيوض فَرْحة الكشف، فيقول: (**للعلم سَورةٌ، ولانفتاحه بعد استغلاقه فرحةٌ، لا يضبطها بشريٌّ وإن اشتدَّت حُنكَتُه، وقَوِيَت مُنَّتُه، وفَضَلت قُوَّتُه**)[٢].

ما أضيقَ العلمَ لولا فُسحَةُ الفَرَحِ!

---

(١) بدائع الفوائد (١: ٣٣٨).

(٢) العثمانية للجاحظ (٢٦٧).